منهم ومن العرب ، ولو كان المصريون يصدقون أخبار المقطم والأهرام عن فظائعهم في سوريه لأجمعوا على ذلك ، وقد انفتحت لهم أبواب أخرى للاقتناع . وما قلت لأحد منهم ان ما أتاه جمال باشا من التقتيل والتصاليب والتغريب عن الوطن ثبت عندى من طريق الأسرى العثمانيين ومن طريق أمريكه وأوربه ، ثم من طريق الحجاز إلا قبلوه مذعنين ، ولعنوا جميع الاتحاديين ، وسيأتى يوم يصدق فيه الجميع هذه الاخبار ولعله ليس ببعيد .

السيد عبد الحميد الزهراوى

كان الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين ، لا يكاد يلزّ به فى مجموعة مزاياه قرين ، ماعرفت بلاده كنهه ، ولا قدرته قدره ، على انها لم تقصر فى تعظيمه وتكريمه ، وفى الاحتفال له والحفاوة به أيام سفره وأيام قدومه ، اذا عرف الجمهور منه فى أواخر سنىّ حياته كما كان يعرف الآحاد ، انه أحد أشراف البلاد المتصرفين لخدمة الأمة بكفاءة واستعداد ، من معرفة المصلحة وفصاحة اللسان ، وقوة الحجة وجرأة الجنان ، وما كان لمثل الجمهور أن يدرك كنه المزايا والفضائل التى بها كان الزهراوى فى حقيقة جوهره من الحكماء الربانيين ، والفلاسفة الاجتماعيين ؛ وإن قضت عليه الأيام بالانتظام فى سلك السياسيين ؛ تلك الفضائل التى عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين ؛ وهى استقلال الرأى وصدق القول وقوة الارادة والاخلاص فى العمل وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة ، بل لم نعلم عنه انه اشتغل فى طور من أطوار حياته بمنافعه الخاصة ، وإنما نعلم عنه انه بدأ حياته العملية منذ بلوغ الرشد بانشاء (جريدة المنير) السرية التى كان يطبعها فى حمص بمطبعة الجلاتين ويوزعها فى البلاد السوريه سراً لخدمة جمعية الاتحاد والترقى الاولى والسعى معها لانقاذ الدولة من الادارة الحميديه المستبدة ، فعلق بالسياسة من ذلك الحين وظل مشتغلا بها طول حياته

كان بيننا وبين هذا الصديق العزيز تشابه فى النشأة والتربية ، ومشاكلة فى

الاستعداد والغريزة ، وتقارب الفكر والرأي ، تعارفنا به بالمكاتبة قبل اللقاء ، ثم كان بعد اللقاء كالمحبة والوداد ، لم يزدد بالمعاشرة إلا ائتلافاً ورسوخاً ، كان كل منا ميالاً إلى الاشتغال بالاصلاح الديني والاجتماعي وعلاقة ذلك بالسياسة لا تخفى ، ولكن تيسر لكل منا من أمر الاشتغال بالسياسة أو الاصلاح ما لم يتيسر للآخر ، إذ كانت هجرتنا إلى مصر وهجرته إلى الآستانه

وفي سنة ١٣١٥ التي أنشأنا فيها المنار كان هو محرراً في إدارة جريدة (معلومات) العربية في الآستانه ، وكان ما يكتبه فيها موافقاً لمشرب المنار ، ووقع بيننا ما يشبه المناقشة في المسائل الاصلاحيه (راجع ص ٩٥٠ من الطبعه الثانيه لمجلد المنار الاول) ثم نفته أفكاره من الآستانه إلى وطنه ، وفي سنة ١٣١٩ كتب وهو في مشق الشام تحت المراقبة السياسيه رسائله الاصلاحيه الثلاث (الفقه والتصوف) التي نشرنا أولها في المجلد الرابع من المنار ثم قرظنا فيه المجموع لما طبع على حدته في مصر ، وقد كانت هذه الرسائل أشد مما كنا نكتبه في موضوعها نقداً على سعة الحريه هنا وشدة الضغط هناك ، فهاجت عليه حملة العمائم في دمشق ، وأشد ما أنكروا عليه فيها القول بالاجتهاد وبطلان التقليد ، فهيجوا عليه الحكومه فاعتقلته في الشام ثم أرسل إلى الآستانه ، ولم يكن سبب ذلك التشديد عليه ، والاغضاء عمن اتهموا بالقول بالاجتهاد وابطال التقليد معه غيرة من الحكومه على الفقهاء والصوفيه ان يوجه اليهما انتقاد ، ولا مجرد الارضاء عصبية الحشويه الجامدين في الشام ، وإنما سببه الباطن انه كان نشر في المقطم مقالة في انطلاقه بامضاء (ع . ز) وهو إمضاؤه الرمزي لكل ما كان ينشره بمصر ، وقد رجحت تلك المقالة معه عند القبض عليه وحاول تمزيقها . وقد أشار الاستاذ الامام إلى هذه الواقعه في فصل (الاسلام اليوم) من كتاب (الاسلام والنصرانيه) وإنما نذكر عبارته هنا لما فيها من تأييد هذا الصديق الشهيد وهي :

ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلاميه غير البلاد المصريه كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافه ، ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفيه وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزئ به ، أو ما يقرب من هذا ، وهو قول قال به جمهور أهل السنه من قبله ، فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه

هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب المباعب ، وقالوا إنه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن ، فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما علق عليه بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، إلى آخر ما يقال فى الشكوى ، فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الامر هناك أيضاً بسجنه ، ولم يعف عنه إلا بعد شهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب ، اه أرسل الرجل إلى الآستانه فاعتقلته السلطة الحميدية هنالك أشهراً ، بعد جعله تحت مراقبة الجواسيس زمناً ثم أرسل إلى بلده (حمص) ليكون مقيما فيها تحت المراقبة لا يبرحها (ويسمى مثله فى عرف الدولة الرسمى « مأمور اقامة ») فبقى فيها إلى أن فرّ إلى مصر سنة ١٣٢٤ وبقى فيها يشتغل بالتحرير فى المؤيد ثم فى الجريدة إلى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٧ فعاد إلى سوريه فانتخب مبعوثا عن لواء حماه وكان من أمره فى المجلس وبعده ما كان .

لو كان الزهراوى من طلاب المنافع الشخصية لأمكنه أن ينال منها فى عهد عبد الحميد ما نال من كانوا دونه من أرباب الأفكار وحملة الاقلام الذين استمالهم السلطان عبد الحميد وأعوانه وغمروهم بالأموال والرتب وأوسمة الشرف ، ولم يكن جهاده القانونى للاستبداد الذى انقلبت إليه جمعية الاتحاد والترقى بعد الدستور بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدى مع الجمعية فى إبان صلاحها ومع غير الجمعية أيضاً ، نصرها فى الأيام الاولى من عهد الدستور كما نصرها قبله ، وجاهدها بعد أن صار أمر الدولة كله فى يدها ، ولو كان من طلاب المنافع الشخصية لنال بمسايرة الجمعية منها ما كان يعلم انه لا ينال بمعارضتها ، وما كنت أرى - وأنا فى الآستانة - أحداً من المعارضين للجمعية يرى قوتها فوق ما كانت عليه إلا الزهراوى ، كان من أشدهم معارضة لحزب الجمعية فى المجلس وفى جريدة الحضارة التى أسسها فى الآستانة ، على كونه من أشدهم انقطاعا بقوة الخصم وبعداً عن الغرور بما كان يروى عن ضعفه ،

فجملة القول فيه أنه بدأ حياته بخدمة الامة والدولة وثبت على ذلك طول حياته ، وان جل عمله كان مع جمعية الاتحاد والترقى ؛ فهو بعد تلك المعارضة فى زمن المبعوثية

اعتقد أن الدولة صارت بيد الجمعية ، وأنه لا يوجد فى الأمة حزب يرجى أن ينتزعها منها ، فلم يبق من طريق لخدمة الدولة والامة الا طريقها ، وهذا الاعتقاد هو الذى حمله على قبول منصب الاعيان أخيراً كما سنبينه بالبرهان ، وكان جزاؤه من الجمعية التى أفنى شبابه فى خدمتها أن قتلته شر قتلة ، وأبقت جثته مصلوبة فى الشام ١٢ ساعة ، ليعلم كل عربى يراها أو يسمع خبرها كيف تكون عاقبة العربى العالم المفكر ، والخطيب المؤثر ، والكاتب المحرر ، عند هؤلاء القوم الذين جعلوا من أصول سياستهم محو العربية من سورية والعراق ، وحتم البداوة على عرب الجزيرة وايقاع الشقاق الدائم بينهم الى أن يبيد بعضهم بعضا

كان قبول السيد الزهراوى لمنصب الاعيان من الحكومة الاتحادية مثار الاستياء جمهور طلاب الاصلاح ومحبي الاصلاح للامة العربية العثمانية وسبب سوء الظن فيه وكثر القول بأنه تحول عن سيرته التى كان عليها طول عمره فآثر منفعته الشخصية على مصلحة أمته العربية ، فتحول ذلك الجمهور الذى كان يدعوه ويصفق له الى الخوض فيه ولو كان عقل الجمهور يدرك كنه تلك الفضائل التى وصفناه بها بحق لما صدق أن مثله يتحول بعد سن الخمسين من عمره الى ضد ماثبت عليه من أول نشأته ، وما الذنب على العامة فى ذلك وإنما الذنب ذنب خواص الاذكياء والمتعلمين الذين سارعوا الى الخوض فيه فتبعتهم العامة ، وكان يجب عليهم التروى والتثبت فى أمر هذا الحدث الجديد أهذا العامل المستقل معذور فيه واجتهاد أم لا ؟ ثم التثبت والتروى فى الطعن بمثل هذا الرجل منهم إن ثبت لهم أنه مجرم سياسى متعمد ، لا مجتهد مصيب أو مخطىء ، فان أول نتائج الطعن فى مثله — وقل ان يوجد مثله فى طهارة سيرته الشخصية والسياسية — هى زوال ثقة الامة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين ، وما أولئك الطاعنون الا حاسد ينقم من الزهراوى مالا يتمنى مثله لنفسه ، أو نفس ساء ظنه لسوء نيته وفعله ، أو غيور شديد العصبية ، قليل الروية ، يبادر الى ارضاء حميته ، ولا يحسب حسابا لعاقبة قوله وعمله

لم يكن الزهراوى من أهل الاهواء الذين يجعلون مصلحة الامة والدولة تبعا

للأغراض، وعرضة للعواطف والاعتقاد، بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة والرغائب المأمولة، فلما رأى أن الاتحاديين يحاولون إصابة أغراضهم الضارة بالأمة العربية وبوحدة عناصر الدولة - بقوة مجلس المبعوثين أحب أن يحاربهم بسلاحهم فكان من المؤسسين لحزب الحر المعتدل ثم لحزب الحرية والائتلاف الذي تكون من هذا الحزب الذي أكثر أفراده من العرب، ومن حزب الأهالي الذي أكثر أفراده من الترك، وكان الزهراوي وكيل الرئيس في هذا الحزب، وقد ظفر هذا الحزب بالاتحاديين فجذب إليه الجم الغفير من مفكريهم وضباطهم، ثم أسقط وزارتهم واستبدل بها وزارة مختار باشا التي لم تكن هي ولا وزارة كامل باشا التي جاءت بعدها ائتلافية ولا اتحادية، وإنما كانتا على كراهتهما لسيرة الاتحاديين، غير معتصمتين بعروة الائتلافيين، ولا موافقتين لهم في كل شيء، ولذلك سهل على الاتحاديين إسقاط وزارة كامل باشا، وقد أخطأ الائتلافيون بعدم جعل الوزارة من حزبهم

وقعت حرب البلقان في أيام وزارة مختار باشا فانكسرت الدولة فيها وألفت وزارة كامل باشا لتدارك أمر الدولة بالصلح، وفي أثناء ذلك جاء الزهراوي مصر قاصداً الذهاب إلى الأستانة لقرب موعد فتح مجلس المبعوثين وقد أقنعناه بأن لا يتعجل السفر لما يخشى من وقوع الفتن بالأستانة، وقد وقع ما كنا نتوقعه بهجوم الاتحاديين على الباب العالي وقتلهم ناظر الحربية فيه وإسقاطهم وزارة كامل باشا والقبض على أزمة الحكومة، ولكن صاحبنا كان يصر على السفر، يظن ظنا كاد أو كان يسميه يقينا بأن الاتحاديين لا يلبثون أسبوعا حتى تسقطهم الأمة وتستبدل بهم غيرهم، فأقنعناه بأن يصبر حتى تصدق الأيام ظنه أو تكذبه، وما اقتنع منا إلا بإدلال الصداقة على أنه كان يرجع عن رأيه إلى رأي صديقه هذا كما نص على ذلك في كتابه الآتي، وإنما صرحت بهذا لأنه من مقدمات الحجة التي أذكرها بعد نشر ذلك الكتاب.

وفي أثناء حرب البلقان تأسس حزب اللامركزية بمصر ولم يدخل هو في الحزب، لأنه لم يكن ينوي الإقامة بمصر، وإنما رشحه الحزب لرياسة المؤتمر العربي لمكانته العلمية والاجتماعية، ولموافقته للحزب في مقاصده الإصلاحية - فانتخب رئيسا في باريس، وعقد معه الاتحاديون ذلك الاتفاق المشهور

كان في مدة إقامته في باريس أيام المؤتمر وبعدها يكاتب حزب اللامركزية ويعمل برأيه، ولم يسافر إلى الآستانة إلا بعد إذنه، فقد استشار الحزب فيه بين مصر والاستانة، وكان هو يرجح الثانية والحزب يرجح الأولى، وكان يكتب من الآستانة إلى رئيس الحزب كل مايدور هنالك في مسألة اعطاء العرب حقوقهم من الاصلاح والوظائف، ويكتب إلى صديقه (كاتب هذا) مثل ذلك، وماوراء ذلك ما كان يكتمه عن البعض أو عن كل أحد كما يعلم من كتابه المطول الآتي.

كان من فضائل الزهراوي الشخصية التي تعد عيوباً في السياسيين أنه لحسن نيته وصفاء سريرته يبالغ في حسن الظن بكل أحد يظهر له إرادة الخير والحق، فلما قال له الاتحاديون انهم يعترفون بما كان من خطأهم في تنفير العرب منهم وفي محاولتهم تتريك جميع العناصر العثمانية وانهم يرغبون في اصلاح ماأفسدوا في ذلك لتوقف تجديد قوة الدولة عليه ـ صدقهم في ذلك لانه معقول عنده، وعد توجههم منصب الاعيان إليه على ما كان من شدة معارضته لهم برهاناً على صدقهم، وصار يرى أنه ينبغي لطلاب الاصلاح المخلصين أن يمدوا أيديهم إليهم ويساعدوهم على الاصلاح، وانهم إذا أحجموا حل محلهم المنافقون وطلاب المنافع، وكان متفقاً مع صاحبه عبد الكريم الخليل على ذهاب صاحب المنار ورفيق بك العظم إلى الآستانه لهذا الغرض. أما أنا فكان يغلب على ظني أن جعله من الأعيان أحبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة ليفتكروا بهم بعد جلبهم إليهم جملة واحدة؛ وان وجوده وحده هنالك واق له، وفيه فوائد منها أنه تجربة للاتحاديين وحجة عليهم

قبل منصب الاعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ولا لأحد من أصدقائه، وإنما أخبرنا بما كان وبنيته فيه، فلمناه على تعجله، ولكن الحزب أجاز عمله، واتفق الرأي على أن يمضي في هذه التجربة، وأن لا ينضم إليه أحد من المقيمين خارج المملكة، وكان أول ما كتبه إليّ في ذلك قوله من كتاب مؤرخ في ٦ صفر سنة ١٣٣٢ (٦ يناير سنة ١٩١٤) ما نصه:

«أخوكم عين بمون الله وعنايته عضواً لمجلس الاعيان فبشروني بأنكم راضون

من قبولي بها ، والله يشهد إنني إنما قبلت لاتمام العمل وتعلمون قلة الرجال عندنا ياأخي ، يعترض بعض المعجلين فالامر في هذا متروك لحكمتكم وهمتكم . بل أرى ان تقديم شكر الصدارة يكون مؤيداً لاتمام العمل ، ومن الله سبحانه التوفيق »

وقد كتب الى الحزب بنحو هذا فأجيب طلبه لان غرض الحزب الاصلاح لا المشاغبة ولاعداوة الدولة ، ولكن لم يكن يحسن الظن بالاتحاديين أحد وقد دار بيننا وبين هذا الصديق في هذه المسألة وما يتعلق بها مكاتبات ومعاتبات لم تخل من عدة مغاضبات ، وانني انشر الآن منها كتابا مطولا كتبه في ١٦ صفر سنة ١٣٣٢ وكتب في أعلاه « مكتوم كله من كل أحد » وهذا نصه بهذا العنوان

﴿ كتاب سري من السيد الزهراوي ﴾

سيدي الأخ الرشيد　　الولي الحليم الحميد

تحية من الله ومن أخيك ولا برحت المكرمات تحفك لقد عظم شوقي أيها الاخ ومضت الايام وأنا أمني النفس بقرب التلاقي وما زلت راجياً ذلك

يظهر ياعزيزي أن عتبك على تأخري هنا عظيم عرفت هذا من كتابك الى الاخ الاستاذ . . . ويظهر أن قطعك الكتاب عني عمد ، استنبطت هذا من طول مدة القطع ، وقد حملت هذا على كثرة عملك التي أعرفها ، ثم تذكرت ماأعهد من وفرة نشاطك والحمد لله ، وأن كثرة عملك مع تلك الوفرة من النشاط لاتقف في سبيل ماتعزم عليه ، فاستنتجت من هذا القياس - سامحني الله على رأي ابن حزم - أنك تعمدت عدم الزم في الكتابة أو عزمت على عدم الكتابة وقد ظهرت هنا شائعة أن اللامركزيين في مصر مشمئزون من بقائي هنا ، وأنهم قطعوا علاقتهم بي ومكاتبتهم لي ، أنا لم أصدق هذه الشائعة وانما خشيت أن يكون بعض المجولين هناك يصرح بمثل هذه التصريحات وكدت أخشى أن يكون . . . مثلا قد شاهد شيئا من تأففكم لتأخري فبنى على مشاهدته كلاما كتبه الى بعض معارفه هنا فشطر ههنا ونحس

هذه كلها ظنون واستغفر الله تعالى منها ، وأرجوكم مسامحتي عليها ، ومن الشرح يظهر لكم سر تقديمها بين يدي هذه التفاصيل المهمة التي جاء أوانها :

كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فرضي وكيف تعبنا في ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونقا بتوفيق من الله تعالى فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا إلى بلادهم عن طريق استانبول، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا نظرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها ولكن لأنهما مقيمان سابراني وسابرتهما وتوادينا جيداً حتى سفري؛ ولم يكن مثل هذا التواد ولا ربعه بينهما وبين رفقتهم البيروتيين المسلمين

لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور إلى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بتراء، إذاً يكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا، لكن الله سبحانه سلم من هذا، وأقدرني على الصبر هناك ممثلا الفكرة مدة خمسة أشهر — وما هي بالقليلة ولا الكثيرة — ونعمت المدة كانت، وقفت فيها على كثير، وعظم فيها اختباري لأوربا، وما أحوجنا إلى مثل هذا الاختبار — جئت بعد ذلك إلى استانبول لأرى ما جد فيها لان المعرفة بالقديم لا تغني، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها فهم صحيح، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح

بعد وصولي بقليل عرفت كثيراً من الاحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت اكثر وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الاحاطة ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتي وإنما أقول أصبحت يجوز لي أن أفصل وأشرح بشيء من الطمأنينة، وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته.

الشرح ههنا يتعلق بثلاثة مواضيع (أو موضوعات) (١) أوربا والعثمانية (٢) الاتحاديون وغيرهم (٣) رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى. واني أبدأ لكم بالأول لقصر البحث فيه وأشفع بالثاني وأخرت الثالث لطوله وطولته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه

(أوربا والعثمانية) لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة

العثمانية وقررت التداخل في سائر شئونها وإنما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم ؛ وليس في أوربا اليوم موضوع مقدم على هذا الموضوع ، ولا يمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه ، والذي أظنه ان الدولة ستبقى بعد ذلك وتعيش أحسن مما كانت عائشة لأن بعض التداخل طب وليست مثالياً إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها مع عدم التداخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فانا إذا قلنا بعدم التداخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سببا لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة .

الاتحاديون وغيرهم : الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟ لا يوجد الآن حزب سياسي آخر إلا أن يكون خفياً ولم أسم شيئا من هذا ، وحينئذ لا نجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب

نعرف أن للروم جماعات وللارمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟ هلم ننظر :

أولا - الروم كلهم جامعة واحدة برأسهم البطرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني ، وهكذا الأرمن ، أما العرب فليس لهم مثل ذلك وثانياً الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غفيرة وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم إلا جامعتنا في مصر وجامعتنا في بيروت ، إذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجامعتنا في مصر وجامعتنا في بيروت .

فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشعرون أن يخلص اليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل ، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية وينوون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الايمان لأدلة كثيرة ظهرت لي ، ولكني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم ، فان شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن إلى هذه الدرجة - كما أشرتم إلى ذلك في كتاب ... فاني لا أخطئكم بالتحطئة لأني أجل رأيكم أكثر

من رأيى ، وإنما أرجو أن يكون فى خطأى شىء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » .

هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا فى المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على مابيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسيقل الالتفات اليهم، وأما الارمن فهم اليوم آتابيد روسية وسيتم طرق المبعوثية حظ قريب مما يأملون ، وأما نحن معشر العرب فان أخاكم الآن يعتبر ممثل جماعتنا وقد فعلت ما تم على يدى فى الكتاب الذى أرسلته الى الاخ الرفيق فى البريد الماضى وههنا ما أزيد

(٣) رجال الاصلاح الحقيقى وأبناء العرب هنا وفى الجهات الاخرى :

ما أظنكم ـ استغفر الله ـ ما أعتقد أنكم فى حاجة الى بيان أن رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أربعة، أعنى برجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا فى موضوع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم وشهد ماضيهم ، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات، ووقوفهم على متباين النزعات، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذى يحبه الله وكره الفساد الذى يكرهه الله، وامتزجت سيرتهم بأخبار معامع الجهاد الاصلاحى . من اشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة وأخذتهم محبتها وتعشقها . فنحن لقلة هؤلاء وقعون أمام حاجتين عظيمين ـ الحاجة الى تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطينتهم . ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين ، الاول السبات الذى الامة فيه والثانى الجشع الذى أوربا فيه

أترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتكم وحسبناهى فى كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لانكم علقتم الأمل مرارا على صنف منهم ههنا

العرب هنا ثلاثة أصناف: متاجرون، ومتعلمون، ومأمورون، فالصنف الاول لافى العير ولا فى النفير من جهة السياسة والاصلاح ، ثم هو فى غاية القلة ، والصنف الثانى أولاد فى ناشئة العمر لا يلتفتون للسياسة ولا تليق لهم ، والصنف الثالث أربعة

أقسام الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا :

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك البتة والأولى عدم دخولهم فيها فإن هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا: ذلك أن ... ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير وأين ترمي وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضى عن كل شيء فانظر يا عزيزي الى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا .

أما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء .. وأما المأمورون المنصوبون فلا همّ لهم الا حفظ المنصب

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية، إن جاءت فقد جاء الاصلاح وإن لم تجيء فقد منع الاصلاح ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها أبناء عرب تستطيع جامعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم، اللهم الا أن يكون (فلان وفلان) وكل ما أخبركم عنه (فلان) فهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئا . وبعض أولئك الاولاد يحسدون الشاب عبد الكريم وبعضهم لم يتمكن من انالتهم أربا لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا ، فمن هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هراء وهواء

وأما العرب في الجهات الاخرى فهم أهل سوريه وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلص فالسوريون والعراقيون حضر قد ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، الا يهبون ولا يروق لهم أن يوقظوا . وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الاهل وفاهم الله الخير

وشد سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها من الحضر على قلة فنائهم . وقد فهمت من كتاب الأخ (فلان) كثيراً واستنبطت كثيراً ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت روحي أوزاعا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها(١)

أنظر ياعزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم الى هنا فان هنا محل عمل ليس بقليل ، فاني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم فان رضيت من هذا الرأي فعليك عملان مهملان وعمل يمشي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالأول من المعجلين تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الاهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم، والثاني منهما حمالك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية ، أما الثالث فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الاصلاح العلمي والعملي

وإن لم ترض عن هذا الرأي فاكتب الى مفصلا ومبينا كل جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدت من يدع رأيه أخيرا الى رأي وليه . . .

هذه هي الخلاصة المفصلة وإليك خلاصة الخلاصة ، وهي أن اليأس لا يجوز بحال من الاحوال ، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء وأنه مع هذا لا يجوز اهمالها ، وكذا لا يجوز اهمال من يهدم أمر المملكة وتركهم وحدهم، وأنه لابد لنا من رجال ههنا، وأن أكثر ما يتصرف به الرواة من الاخبار فهو صحيح ، وإني منتظر أمركم بسرعة ، وأن شوقي عظيم

والسلام على الأخ السيد صالح وجميع المعارف سلم الله تعالى الجميع .؟

عبد الحميد الزهراوي

---

(١) كنت كتبت الى الأخ الذي أشار اليه ثم اليه هو أن عرب الجزيرة هم صفوة العرب وأعظمهم استعداداً فان كان هنالك اصلاح عربي فيجب أن يكون لهم حظ منه وأن نعتني بشأنهم أكثر من غيرهم

(المنار) من هذا الكتاب وكتب أخرى بمعناه يعلم رأى الرجل الذى بنى عليه اجتهاده ، ومنه أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين ، وبحبهم الاتفاق مع العرب ، وبهذا كان يحاول إقناعنا ، ولم يكن يخفى هذا على الاتحاديين ، ولذلك نجزم بأنهم قتلوه لأنه من أنجب نجباء العرب لا لذنب آخر (والله عزيز ذو انتقام)

وإنما نشرت هذا الكتاب السرى من كتبه بنصه فلم أحذف منه إلا أسماء الأحياء ليكون حجة على فريقين من الناس - فريق الذين قد يظنون أن الاتحاديين ما قتلوا مثل هذا السيد الجليل بعد أن رفعوه إلى مقام الأعيان إلا لأنهم عرفوا له ذنباً كبيراً كالخيانة للدولة أو الجمعية المتصرفة فى الدولة . وفريق الذين ظنوا أنه خان قومه العرب بتركه الدفاع عن حقوقهم بمنصب الأعيان الذى رشاه به الاتحاديون ، وإنما يتم ظهور هذه الحجة ، ببيان ما كان بينى وبين هذا الصديق الصدّيق من الصلة والرابطة

يرى قارئ كتابه أنه قال لى فيه عن نفسه « وأنا من عهدتَ من يدع رأيه أخيراً إلى رأى وليه » وقد أشرت إلى هذه الكلمة فى المقدمة التى قدمتها على هذا الكتاب وأقول إنه يعنى بهذا انى إذا حججته بعد المناقشة معه فى الموضوع وجوب تركه لمنصب الأعيان واشتغاله بعمل آخر فى غير الآستانة فانه يقبل ذلك .

وقد كانت طريقتنا فيما يختلف رأينا فيه أن يدلى كل منا بحجته ، فمن نهضت منا حجته قبلها الآخر ، فاذا لم ترجح إحدى الحجتين وكانت المسألة مما يترتب عليها عمل يرجع هو فى العمل إلى رأى أخيه . ويدل على مكانة هذا الاخ عنده جعله رضاه عنه فى هذا الامر أهم من رضاء الحزب الذى كان سبب ذلك ، وهو صادق فى قوله هذا وقوله ذاك لا ريب عندى فى صدقه ، وما قلت هذا فى بيان كلمته إلا ليعلم المطلع عليه أن الرجل لو كان يكذب ويخدع لم يكن يكذب على ولا يخدعنى ، ولو كان يفعل ذلك لحاول إرضائى بأنه يعامل الاتحاديين بمثل ما يعاملوننا به من الخلابة السياسية ليستفيد منهم فى طور ضعفهم وحاجتهم إلى استرضاء العرب بعض الحقوق ، وما كان يكتب إلى — وهو معتقد انى ساخط عليه ، ومعتمد تركه الكتابة إليه — انه مؤمن بحسن نية الاتحاديين وصدقهم فى هذه المرة ، ولكنه كتب

هذا وهو يعلم أنني أعده مداجة منه وغلواً فى حسن الظن

وأزيد على هذا انني عاتبته على بعض ماجاء فى هذا الكتاب وغيره عتابا ثقيلا جاءت فيه كلمة جارحة فكتب إلى رقعة أودعها كتابا له قال فيها مانصه :

« كلمات بيننا »

« فى كتابكم الأول كلمة لا أكتم عنكم أنها كسرت قلبي ، إذ لو كتمت هذا لكان خيانة للاخاء النظيف الصافى ، ذلك أنكم بنيتم على نظرية إغراقي بحسن الظن بالقوم أن هواء الآستانة طمس على عقلي وقلبي

« أخوكم ياعزيزي قد عرفتموه بعد أن كان عاش فى هذا البلد سنين ، وعرفتموه فى الآستانة نفسها ، فلولا ذلك لرجعت الى نفسي لأرى تغلغل أثر البوسفور فيها

« ولكن كما لم أكتمكم هذه الحقيقة أتحدث أمامكم بما من الله تعالى به من حمل حدتكم القلمية هذه على مايشبهها من حدتكم اللسانية التي نأنس بها أنسنا بحلمكم الذي هو أغلب وأصدق دلالة على كرم قلبكم. على انني أؤكد بشرفكم أن انكسار القلب الذي أشرت اليه كان آنياً وأعقبه تذكر حقيقتكم العالية . أما تأثير كتبنا فقد كان عاماً حتى شمل الوالد ، فلا تحملوه على ذلك السبب ولكن أبى كرمكم إلا يطيب القلب فأخصكم بشكر على هذا » اه

فمن كان بينهما مثل هذه الحرية فى الخطاب والعتاب لا يغش أحدهما الآخر لو كان من دأبهما الغش . وأحمد الله تعالى انني لم أبتل بهذه الرذيلة ، وانني أبرىء منها صديقي الشهيد السعيد كما أبرىء نفسي.

هذا وانني لم أكتف بما دار بيني وبينه قدس الله روحه من المكاتبات فى هذه المسألة بل دعوته إلى زيارتنا بمصر فأجاب ، وكنت أعقد معه مجلسين للمناقشة فى كل يوم وليلة : مجلساً قبل النوم ومجلساً فى الصباح . فرأيته بعد ذلك كله معتقداً أن الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب ، وأنه يجب مسايرة العقلاء منا لهم على ذلك ، واننا ننال بهذا من الحقوق ما لا يرجى أن نناله بالسعي مع مجافاتهم

وقد وافقته على بقائه فى منصب الاعيان والاستمرار على هذا السعي لانه إما أن ينفع وإما أن لا يضر